لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي

محمود درويش

يقولُ لها، وهما ينظران الى وردةٍ
تجرحُ الحائطَ: اقتربَ الموتُ منِّي قليلاً
فقلتُ له: كان ليلي طويلاً
فلا تحجب الشمسَ عنّي!
وأهديتُهُ وردةً مثل تلك...
فأدَّى تحِّيَته العسكرية للغيبِ،
ثم استدارَ وقالَ:
اذا ما أردتك يوماً وجدُتك
فاذهبْ!

ذهبتُ . . .
انا قادمٌ من هناك
سمعتُ هسيسَ القيامةِ ، لكنني
لم أكن جاهزاً لطقوس التناسخ بعد ،
فقد يُنشد الذئب أغنيتي شامخاً
وانا واقفٌ ، قرب نفسي ، على اربعٍ
هل يصدقني أحد ان صرخت هناك :
أنا لا أنا
وأنا لا هُو؟
لم تلدني الذئابُ ولا الخيل . . .
اني خُلقتُ على صورةِ الله
ثمّ مُسختُ الى كائنٍ لُغويّ
وسمّيت آلهتي
واحدا
واحداً ،
هل يصدِّقني احد ان صرخت هناك :
انا ابن أبي ، وابن أمي . . . ونفسي

وقالت : أفي مثل هذا النهار الفتّي الوسيم
تفكِّر في تَبِعات القيامةِ؟
قال : اذن ، حدِّثيني عن الزمن
الذهبي القديم
فهل كنتُ طفلاً كما تدّعي امهاتي
الكثيرات؟ هل كان وجهي دليل

الملائكةِ الطيّبين الى الله،
لا أتذكّر... لا أتذكّر أني فرحتُ
بغير النجاة من الموت!
من قال: حيث تكون الطفولةُ
تغتسل الأبدية في النهر... زرقاء؟
فلتأخذيني الى النهر/

قالت: سيأتي الى ليلك النهر
حين أضُمُّك
يأتي الى ليلك النهر/

اين أنا الآن؟ لو لم ارَ الشمسَ
شمسين بين يديك، لصدّقتُ
أنك احدى صفات الخيال المروَّض
لولا هبوب الفراشات من فجر غمّازتيك
لصدّقتُ أنّي اناديكِ باسمك
ليس المكان البعيد هو اللامكان
وانتِ تقولين:
"لا تسكن اسمك"
"لا تهجر اسمك"!

ها نحن نروي ونروي بسرديّة
لا غنائيةٍ سيرةَ الحالمين، ونسخرُ مما
يحلّ بنا حين نقرأ ابراجَنا،

بينما يتطفّلُ عابر دربٍ ويسأل :
اين انا؟ فنطيل التأمّل في شجر الجوْز
من حولنا، ونقول له :
ههنا . ههنا . ونعود الى فكرة الأبدية!
ليس المكان هو الفخ . . .
مقهى صغير على طرف الشارعِ
الشارعِ الواسع
الشارع المتسارع مثل القطارات
تنقل سكانها من مكان لآخر . . .
مقهى صغير على طرف الشارع
الشارع الواسع
الأسطوانة لا تتوقف- قالت له
قال : بعد دقائق نخرج من ركننا
الى الشارع الواسع المتسارع
مثل القطارات،
ثم يجيء غريبان، مثلي ومثلك،
قد يكملان الحديث عن الفنّ،
عن شهواتِ بيكاسو ودالي
وأوجاعِ فان غوغ والآخرين . . .
وعمّا سيبقى من الحب بعد الاجازة،
قد يسألان : افي وُسْع ذاكرة
ان تعيد الى جسدٍ شحنة الكهرباء؟
وهل نستطيع استعادةَ احساسنا
بالرطوبة والملح في اوَّل البحر

بعد الرجوع من الصيف؟/

ليس المكان هو الفخ
في وسعنا ان نقول:
لنا شارع ههُنا
وبريد
وبائع خبزٍ
ومغسلةٌ للثياب
وحانوت تبغٍ وخمر
وركنٌ صغير
ورائحةٌ تتذكّر/

ها نحنُ نشربُ قهوتَنا بهدوءِ اميرين
لا يملكان الطواويس، انت اميرة نفسك
سلطانةُ البر والبحر، من أخمص القدمين
الى حيرةِ الريحِ في خصلة الشعر.
في ضوء يأسكِ من عودة الأمسِ
تستنطقين حياةً بديهيةً. وبلا حرسٍ
تحرسين ممالكَ سريَّةً. وأنا، في
ضيافةِ هذا النهار، اميرٌ على حصَّتي
من رصيفِ الخريفِ. وأنسى من المُتّكلِّمُ
فينا لفرطِ التشابه بين الغيابِ وبين
الإيابِ اذا اجتمعا في نواحي الكمنجات
لا أتذكّر قلبي الا اذا شقَّهُ الحبُّ

نصفين، او جفَّ من عطش الحب،
او تركتني على ضفة النهر احدى صفاتك!
ضيفاً على لحظة عابرةْ
اتشبّثُ بالصحو،
لا امسَ حولي وحولك
لا ذاكرة،
فلتكن مَعْنوياتنا عالية

عصافيرُ زرقاءُ، حمراءُ، صفراءُ، ترتشف
الماءَ من غيمةٍ تتباطأ حين تُطلُّ على
كتفيكِ. وهذا النهار شفيفٌ خفيفٌ
بهيٌّ شهيٌّ، رضيٌّ بزواره، انثوّيٌّ،
بريءٌ جريءٌ كزيتون عينيك. لا شيء
يبتعد اليوم ما دام هذا النهار
يرحِّب بي، ههنا يُولَدُ الحبُّ
والرغبةُ التؤامان، ونولدُ... ماذا
أريد من الأمس؟ ماذا أريد من
الغد؟ ما دام لي حاضرٌ يافعٌ استطيع
زيارة نفسي، ذهاباً اياباً، كأني
كأني. وما دام لي حاضرٌ استطيعُ
صناعة امسي كما اشتهي، لا كما
كان. إني كأني. وما دام لي
حاضرٌ استطيع اشتقاق غدي من
سماءٍ تحنُّ الى الأرض ما بين

حربٍ وحرب، وإني لأني!
تقول: كأنكَ تكتبُ شعراً
يقول: اتابع ايقاعَ دورتيَ
الدموية في لغة الشعراء. أنا،
مثلاً، لم احبَّ فتاةً معينةً
عندما قلتُ اني احبُّ فتاةً، ولكنني
قد تخيَّلتُها: ذاتَ عينين لوزيتين،
وشعرٍ كنهر السواد يسيل على
الكتفين، ورُمَّانتين على طبق مرمريّ.
تخيلتها لا لشيء، ولكن لأُسمعها
شعر بابلو نيرودا، كأني أنا هو،
فالشعر كالوهم/

ليس المكان هو الفخّ
لم أنتظركِ لتنتظريني، فمثلك منْ
يأمر الحُلْم بالانتظارِ الطويلِ على
ركبتيها. خذيني الى اللامكان المُعَدِّ
لأمثالنا الضالعين بتأويل ذاكرة الغيم
بين الربيع وبين الخريف، وأمّا
الربيع، فما يكتب الشعراء اذا نجحوا
في التقاط المكان السريع بصُنّارة
الكلمات. وأما الخريف، فما نحن فيه
من الاهتداء برائحة الشجر العاطفيّ
وبحث الغريبة في كلمات الغريب عن

اسم الحنين . . . وعَن شَبّهٍ غائمٍ
في ثنائية الشعر والنثر . لا النثر نثرٌ
ولا الشعر شعرٌ اذا ما همستِ :
احبكَ ! او قالت امرأةٌ في القطار
لشخصٍ غريبٍ ، أعنِّي على
نحلةٍ بين نهديّ . . . او قال شخصٌ كسولٌ
لإسكندر الأمبراطور : لا تحجب
الشمس عني . ولكنني اذ أُغنِّي ،
أُغنّي لكي أُغري بالموت بالموت/

ليس المكان هو الفخ
ما دمتِ تبتسمين ولا تأبهين
بطول الطريق . . . خذيني كما تشتهين
يداً بيدٍ ، او صدىً للصدى ، او سدى .
لا أريدُ لهذي القصيدة ان تنتهي ابدا
لا أريد لها هدفاً واضحاً
لا أريد لها ان تكون خريطة منفى
ولا بلدا
لا أريد لهذي القصيدة ان تنتهي
بالختام السعيد ، ولا بالردى
أريد لها ان تكون كما تشتهي ان
تكون :
قصيدة غيري . قصيدة ضدي . قصيدة
ندِّي . . .

أريد لها ان تكون صلاة اخي وعدوي.
كأن المخاطب فيها انا الغائب المتكلم فيها.
كأنَّ الصدى جسدي. وكأني أنا
أنتِ، او غيرَنا. وكأني أنا آخري!

كي اوسِّع هذا المدى
كان لا بُدَّ لي:
- من سنونوة ثانية
- وخروج على القافية
- وانتباه الى سعة الهاويةْ

لا أريد لهذي القصيدة ان تنتهي
لا أريد لهذا النهار الخريفي ان ينتهي
دون ان نتأكَّد من صحة الأبدية.
في وسعنا أن نحبَّ،
وفي وسعنا أن نتخيّل انّا نحبُّ
لكي نُرجئ الانتحار، اذا كان لا بدَّ منه،
الى موعد آخر...
لن نموت هنا الآن، في مثل
هذا النهار الزفافيّ، فامتلئي
بيقين الظهيرة، وامتلئي واملئيني
بنور البصيرة/

ينبئني هذا النهار الخريفي

انّأ سنمشي على طرق لم يطأها
غريبان قبلي وقبلك الا ليحترقا
في البخور الالهي.
ينبئني اننا سوف نسمع طيرا تغني
على قدر حاجتنا للغناء. . . خفيفاً
خفيَّ التباريح، لا رعويا ولا وطنياً
فلا نتذكّر شيئا فقدناه/

ان الزمان هو الفخ
قالت: الى أين تأخذني؟
قال: لو كنتِ اصغر من رحلتي
هذه، لأكتفيتُ بتحوير آخر فصل
من المشهد الهوميري. . . وقلتُ:

سريرك سرّي وسرُّك،
ماضيك يأتي غدا
على نجمة لا تصيب الندى
بأذى،
أنام وتستيقظين فلا انت مُلتفَّةٌ
بذراعي، ولا أنا زُنّار خصرك،
لن تعرفيني
لأن الزمان يُشيخ الصدى
وما زلتُ أمشي. . . وأمشي
وما زلتِ تنتظرين بريد المدى

أنا هو، لا تُغلقي باب بيتك
ولا ترجعيني الى البحر، يا امرأتي، زبدا
انا هُوَ، منْ كان عبداً
لمسقط رأسك. . . او سيّدا
انا هو بين يديك كما خلقتني
يداكِ، ولم اتزوَّج سواكِ
ولم أُشفَ منك، ومن نُدبتي ابدا
وقد راودتني الهات كل البحار سدى
أنا هو، من تفرطين له الوقت
في كُرة الصوف،
ضلَّ الطريق الى البيت. . . ثم اهتدى
سريرك، ذاك المخبأ في جذع زيتونة
هو سرِّي وسرُّك. . .
قالت له: قد تزوجني يا غريبُ
غريبٌ سواك
فلا جذع زيتونة ههنا
او سرير،
لأن الزمان هو الفخ/

ينبئني ضوء هذا النهار الخريفيّ
أني رأيتك من قبل، تمشين حافيةَ
القدمين على لغتي، قلت: سيري
ببطءٍ على العشب، سيري ببطءٍ
لكي يتنفَّس منك ويخضرّ. والوقت

منشغلٌ عنك . . . سيري ببطءٍ لأُمسك
حلمي بكلتا يديّ . رأيتك من قبل
حنطيّةً كأغاني الحصاد وقد دلّكتها
السنابل ، سمراءَ من سهر الليالي ،
بيضاء من فرط ما ضحك الماء حين
اقتربت من النبع . سيري ببطءٍ ،
فأنّى مشيتِ ترعرعت الذكريات حقولا
من الهندباء ، رأيتك من قبلُ في
الزمن الرعويّ
على قدر ليل الغريب
تنامُ الغريبةُ/

فاحتجبي ، واظهري ، والعبي ، واكسري
قدري بيديك الحريريتين ، ولا تخبريني
الى اين تمضين بي في دهاليز سرِّك ،
لا تخبريني الى اين تمضين بعدي
الى اين اذهبُ بعدك . لا بعد
بعدك . ولنعتنِ الآن بالوردة الليلكية
ولتُكمل الأبدية اشغالنا دوننا ،
ان اطلنا الوقوف على النهر او
لم نُطل . سوف نحيا بقية هذا
النهار . سنحيا ونحيا . وفي الليلِ ،
ان هبط الليل ، حين تنامين فيّ
كروحي ، سأصحو بطيئاً على وَقْع

حلم قديم، سأصحو واكتب مرثيتي.
هادئاً هادئاً. وارى كيف عشت
طويلاً على الجسر قرب القيامة، وحدي
وحراَ. فإن اعجبتنيَ مرثيتي دون
وزن وقافية نمت فيها ومتُّ
والا تقمصت شخصية الغجري
المهاجر:
جيتارتي فرسي
في الطريق الذي لا يؤدي
الى أيّ أندلسِ
سوف ارضى بحظِ الطيورِ وحريةِ
الريح. قلبي الجريح هو الكون.
والكون قلبي الفسيح. تعالي معي
لنزور الحياة، ونذهب حيث اقمنا
خياماً من السرو والخيزران على
ساحل الأبدية. ان الحياة هي اسم
كبير لنصر صغير على موتنا. والحياة
هي اسمك يطفو هلالاً من اللازورد
على العدم الأبيض، استيقظي وانهضي،
لن نموت هنا الآن، فالموت حادثة
وقعت في بداية هذي القصيدة، حيث
التقيت بموت صغير وأهديته وردة،
فانحنى باحترام وقال: اذا ما أردتك
يوما وجدتك/

فلنتدرب على حُبِّ اشياء ليست
لنا، ولنا . . . لو نظرنا اليها معاً من علٍ
كسقوط الثلوج على جبلٍ
سيغنّي لك الغجري، كما لم يغنِّ:
أقول لها
لن ابدِّل أوتار جيتارتي
لن أبدّلها
لن أحمّلها فوق طاقتها
لن أحمّلها
لن اقول لها
غير ما تشتهي ان أقول لها
حملتني لأحملها
لن أبدِّل أوتارها
لن أبدّلها

لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي
لا أريد لهذا النهار الخريفي أن ينتهي